إحســـان

كَانَتْ إِحْسَانُ فَتَاةً صَغِيرَةً فَقَدَتْ أَبَاهَا وَأُمَّهَا مُنْذُ الصِّغَرِ ، فَذَهَبَتْ لِتَعِيشَ فِي مَنْزِلِ خَالِهَا فِي الرِّيفِ ، وَكَانَ رَجُلاً غَنِيًّا ذَا مَالٍ وَضِيَاعٍ وَاسِعَةٍ وَخَدَمٍ وَحَشَمٍ . وَكَانَ لَهُ زَوْجَةٌ غَنِيَّةٌ أَيْضًا ، وَكَانَ لَه مِنْهَا بِنْتَانِ . وَمَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ مُعَامَلَةَ هٰذِهِ الْأُسْرَةِ لِتِلْكَ الْيَتِيمَةِ كَانَتْ مُعَامَلَةً قَاسِيَةً مَلْأَى بِالِازْدِرَاءِ وَالتَّحْقِيرِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فَقِيرَةً ، وَلِأَنَّهَا كَانَتْ وَدِيعَةً مُتَوَاضِعَةً . فَكَانَ الْخَالُ لَا يَحْنُو عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ تُكَلِّفُهَا الْخِدْمَةَ فِي الْمَطْبَخِ ، وَلَا تَسْمَحُ لَهَا بِالنَّوْمِ فِي الْمَنْزِلِ ، بَلْ فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي الْحَدِيقَةِ مِنْ حُجَرِ الْخَدَمِ . وَكَانَتِ الْفَتَاةُ مَعَ هٰذِهِ الْقَسْوَةِ عَلَيْهَا تَحْنُو عَلَى الْفُقَرَاءِ أَمْثَالِهَا ، وَتُقَاسِمُهُمْ فَضَلَاتِ الطَّعَامِ الَّتِي تُتْرَكُ لَهَا ، وَالْمَلَابِسَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي تَخْلَعُهَا عَلَيْهَا بَنَاتُ خَالِهَا ، وَلِذٰلِكَ أَطْلَقَ عَلَيْهَا الْفُقَرَاءُ اسْمَ «إِحْسَانَ»

وَذَاتَ لَيْلَةٍ أَتَتْ إِلَى بَابِ الْمَطْبَخِ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ قَبِيحَةُ الْخِلْقَةِ ، وَطَلَبَتْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَمَأْوًى ، فَطَرَدَتْهَا الْخَادِمُ ، وَلٰكِنَّ إِحْسَانَ قَدَّمَتْ لَهَا طَعَامَهَا ، وَغَسَلَتِ الْقُدُورَ وَالْأَوَانِيَ ، ثُمَّ قَدَّمَتْ لَهَا فِرَاشَهَا ، وَنَامَتْ هِيَ عَلَى حَصِيرٍ فِي أَرْضِ حُجْرَتِهَا . وَفِي الصَّبَاحِ الْمُبَكِّرِ ، وَإِحْسَانُ لَا تَزَالُ نَائِمَةً رَحَلَتِ الْعَجُوزُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُقَدِّمَ كَلِمَةَ شُكْرٍ وَاحِدَةً عَلَى هٰذَا الْعَطْفِ . وَفِي الْمَسَاءِ عَادَتِ الْعَجُوزُ إِلَى بَابِ الْمَطْبَخِ ، وَطَلَبَتْ طَعَامًا وَمَأْوًى مَرَّةً أُخْرَى ، فَطَرَدَتْهَا الْخَادِمُ ، وَلٰكِنَّ إِحْسَانَ قَدَّمَتْ لَهَا طَعَامَهَا ، وَغَسَلَتِ الْقُدُورَ وَالْمَوَاعِينَ ، ثُمَّ قَدَّمَتْ لَهَا فِرَاشَهَا ، وَنَامَتْ هِيَ عَلَى حَصِيرٍ فِي أَرْضِ حُجْرَتِهَا . وَفِي الصَّبَاحِ الْمُبَكِّرِ ، وَإِحْسَانُ لَا تَزَالُ نَائِمَةً ، رَحَلَتِ الْعَجُوزُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُقَدِّمَ كَلِمَةَ شُكْرٍ وَاحِدَةً عَلَى هٰذَا الْعَطْفِ ، وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذٰلِكَ سِتَّ لَيَالٍ أُخْرَى . وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تُقَدِّمُ إِحْسَانُ عَشَاءَهَا وَفِرَاشَهَا لِلْعَجُوزِ وَلَا تَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى كَلِمَةِ شُكْرٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَحِيَّةٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ .

وَفِي اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ حَضَرَتْ كَعَادَتِهَا إِلَى بَابِ الْمَطْبَخِ وَمَعَهَا كَلْبٌ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ وَقَالَتْ لِإِحْسَانَ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا : « مَسَاءَ الْخَيْرِ ، يَا بُنَيَّتِي الصَّغِيرَةَ ، إِنِّي لَا أُرِيدُ عَشَاءَكِ وَلَا فِرَاشَكِ بَعْدَ

الآنَ ، وَلَكِنِّي سأترُكُ كلَّ هٰذا في رِعايَتِكِ إذْ لا يُوجَدُ مَنْ يَرْغَبُ في العِنايَةِ بِهِ في هٰذِهِ البَلْدَةِ ، لأنَّهُ شَرِسٌ وَقَبيحُ المَنْظَرِ وَأنا رَاحِلَةٌ لِزِيارَةِ صَديقَةٍ لي وَلا أعُودُ إلاَّ عِنْدَ حُلولِ أقْصَرِ نَهارٍ في السَّنَةِ » وَما كادَتْ تَنْتَهي مِنْ كَلامِها حَتَّى أسْرَعَتْ رَاحِلَةً ، وَاخْتَفَتْ عَنِ الأنْظارِ . أمَّا الكَلْبُ فَقَدْ أخَذَ يُداعِبُ إحْسانَ وَيَلْعَقُ يَدَيْها ، وَبالعَكْسِ كانَ شَرِساً مَعَ غَيْرِها ، لا يَسْمَحُ لأحَدٍ أنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ . وَقَدْ أفْرَدَتْ لَهُ حَظيرَةً قَديمَةً مِنْ حَظائِرِ الحَيَواناتِ المَنْزِلِيَّةِ ، وَكانَتْ تُقاسِمُهُ طَعامَها . وَلَمَّا أقْبَلَ الشِّتاءُ ، وَاشْتَدَّ البَرْدُ ، نَقَلَتْهُ إلى حُجْرَةِ نَوْمِها ، وَفَرَشَتْ لَهُ فِراشاً دَفيئاً مِنَ القَشِّ في رُكْنٍ مِنْ أرْكانِها . وَكانَتْ ، مِنْ فَرْطِ تَعَبِها مِنَ العَمَلِ في أثْناءِ النَّهارِ وَجُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ ، تَنامُ نَوْماً عَميقاً طُولَ اللَّيْلِ ، فَلا تَعْلَمُ شَيْئاً مِمّا كانَ يَجْري حَوْلَها .

وفتحت النافذة ودخل نور قصار القامة . . . .

وَكانَ خَدَمُ المَنْزِلِ يَسْألونَها ، قائِلينَ : « ما هٰذا الضَّوْءُ السّاطِعُ الَّذي يَنْبَعِثُ مِنْ حُجْرَةِ نَوْمِكِ لَيْلاً ؟ وَما هٰذِهِ الأصْواتُ العَذْبَةُ وَالأحاديثُ المُهَذَّبَةُ الَّتي نَسْمَعُها ؟ » . وَكانَتْ إحْسانُ تَقولُ : « إنَّهُ لا شَكَّ ضَوْءُ القَمَرِ الَّذي يَدْخُلُ الحُجْرَةَ مِنْ نافِذَةِ العارِيَةِ ، وَإنَّ الأحاديثَ الَّتي يَقولونَ عَنْها إنْ هِيَ إلاَّ أحْلامٌ وَتَخَيُّلاتٌ . » وَذاتَ لَيْلَةٍ ، وَكانَتْ لَيالي الشِّتاءِ قَدْ أخَذَتْ تَطول ، وَأخَذَ النَّهارُ يَقْصُرُ ، دَعا الفُضولُ

خادمًا صغيرةً في المنزل إلى السهر ومراقبة حجرة إحسان من ثقب الباب. فرأت الكلب راقدًا على البرسيم الجاف (الدريس) في ركن الحجرة ، وإحسان نائمة في فراشها نومًا عميقًا ، والقمر يملأ الحجرة بضوئه من خلال النافذة العارية ، وفي وسط هذا السكون فتح زجاج النافذة فجأة ، ودخل منها جماعة من الرجال فصار القامة ، يلبسون ملابس رمزية مذهبة . وتقدموا بكل خشوع واحترام نحو الكلب ، وقال أحدهم ، وكان يلبس ملابس أفخر وأثمن من ملابس الآخرين ، مخاطبًا الكلب : « ياصاحب السمو الملكي ، لقد أعددنا المأدبة فبماذا تأمر سموكم بعد ذلك ؟ »

فقال الكلب : « حسنًا فعلتم ، والآن أعدوا المدة للحفل الساهر ، وليكن كل شيء عاليًا في البهاء والعظمة ، فقد قررت الأميرة ، وقررت معها أن تحضر معنا ضيفًا لم يدخل قصرنا من قبل . » فقالت الفتاة : « سمعًا وطاعة يا مولاي الأمير . » وانحنت هي ومن معها باحترام ، وانصرفن خارجات من النافذة التي أقفلت في الحال من نفسها بهدوء عجيب . وقد دهشت الخادم مما رأت ، وأخذها الذهول والعجب ، وأبلغت

إحسان تنظف القدور

قصرنا من قبل . » فقال الرجل القصير : « سمعًا وطاعة يا مولاي الأمير . » وانحنى هو ومن معه باحترام ، وانصرفوا خارجين من النافذة . وبعد قليل أقبلت جماعة من الفتيات ، تلبسن ملابس من المخمل الوردي ، ويحمل كل منهن مصباحًا من البلور ثم تقدمن من الكلب باحترام وتبجيل ، وقالت إحداهن ، وكانت أبهر الجميع جمالاً وهندامًا : « يا صاحب السمو الملكي ، لقد جهزنا الأتاث والرياش ، فبم تأمر سموكم بعد ذلك ؟ » فقال الكلب : « حسنًا فعلتن ، والآن أعددن الملابس ، وليكن كل شيء عاليًا في البهاء والعظمة ، فقد قررت الأميرة ، وقررت معها أن تحضر معنا ضيفًا لم يدخل قصرنا من قبل . » فقالت الفتاة : « سمعًا وطاعة يا مولاي الأمير . » وانحنت هي ومن معها باحترام ، وانصرفن خارجات من النافذة التي أقفلت في الحال من نفسها بهدوء عجيب . وقد دهشت الخادم مما رأت ، وأخذها الذهول والعجب ، وأبلغت

سيدتها كل ما حدث، ولكنها ضحكت منها، وقالت إنها تخيلات وأضغاث أحلام، لأن عقلها لا بد أن يكون به مس من جنون أو خبل. غير أن حب الاستطلاع تملك مشاعرها، فقالت في نفسها: «ربما كان هناك شيء من الحقيقة فيما ذكرت الخادم..» وفي الليلة التالية عند ما نام كل من في المنزل خرجت تتسلل حتى وصلت إلى حجرة إحسان، وأخذت ترقب ما يحدث من خلال ثقب الباب، فرأت كل شيء يحدث كما وصفته الخادم.

وبعد قليل اقبلت جماعة من الفتيات . . . .

وعادت إلى المنزل، ولكنها لم تنم من شدة العجب والاضطراب، وأيقظت زوجها، وقصت عليه القصص. فضحك منها، وقال إنها تخيلات وأضغاث أحلام. غير أنه في الليلة التالية صمم على أن يكشف عن الحقيقة بنفسه، وانتظر حتى نام كل من بالمنزل، ونزل يستطلع الخبر من ثقب الباب، فرأى كل شيء يحدث كما أخبرت به زوجه. وعاد إلى مضجعه يفكر في هذا الأمر العجيب، ويحاول النوم عبثا من شدة اضطرابه. ودهشه وبينما هو يفكر إذ تذكر أن جده الأكبر كان قد ذكر أن هناك قريبا من ضيعتهم هذه طريقا يوصل إلى روضة يقطنها قوم أخيار من الجن. ومن ذلك أيقن أن الكلب لا بد أن يكون جنيا طيب القلب، وأنه لذلك يجب أن يتملقه ويتودد إليه. ففي الصباح قام وجهز فطورا جميلا من لحم الضأن المقلي، وحمله بنفسه إلى الكلب، ولكن الكلب رفض الطعام، ولم يمسسه، وزمجر وطارد الرجل وكاد يعضه ويفترسه لو لم يجر ويفر هاربا ومعه اللحم.

وفي المساء بينما كانت الأسرة تتناول عشاءها علا نباح الكلب، وسمع طرق على باب المطبخ. فقامت إحسان وفتحته، فإذا بالعجوز القبيحة

الخلقة تحييها ، وتقول : « هذا أقصر نهار في السنة ، وقد عدت من سفري الطويل ، وقد أحسنت معاملة كلبي . فأنا أدعوك إلى منزلي ، وسأبذل جهدي أنا وكلبي للاحتفال باستقبالك ، وجعله ممتعاً سعيداً . وها هو الركب مقبل فهيا بنا » وما كادت العجوز تنتهي من كلامها حتى دوى في الفضاء صوت الصور ثم صوت الموسيقى ، وظهرت من بعيد أضواء المشاعل ، وأخذت تقترب وتتقدم حتى ظهر الركب : عربات فخمة تجرها صافنات من الجياد البيض يجلس فيها أناس يلبسون ملابس في أعلى مراتب الأبهة والعظمة ، محلاة بالذهب والجواهر الثمينة . وكانت العربة الاولى ، وهي أبهى وأفخم جميع العربات ، خالية من الراكبين . وفي الحال أخذت العجوز بيد إحسان ، وقادتها إلى تلك العربة وقفز الكلب راكباً معهما . وما كاد يستقر بهم الجلوس فيها حتى حدثت معجزة : إذ تحولت العجوز إلى أميرة بارعة الجمال ، وتحول الكلب إلى أمير يافع بهي الطلعة في ملابس وردية اللون محلاة بالفضة والذهب والجواهر الغالية . حدث ذلك وإحسان دهشة مذهولة مما ترى . وهنا تكلم الامير ، وقال : « أنا امير ، وهذه أختي أميرة أيضاً من أمراء الجان . وقد اختلفنا في أمر من الأمور إذ أزعجني حالة بني الإنسان ، وما صاروا إليه من طمع ورياء . فقلت إن الدنيا قد خلت تماماً من ذوي النفوس الطيبة ومن المحسنين . وقالت أختي إنه لا يزال فيها بعض الطيبين . وتراهنا ، وقد خسرت الرهان إذ وجدناك . وعلى مصاريف حفلات استقبالك والهدايا . » وسار الركب حتى وصل إلى مملكة الجان ورأت فيها من العجائب ما لا عين رأت ، وسمعت فيها ما لم تسمعه أذن . وفي قصر الأمير قامت الحفلات سبعة أيام كاملة ، ولبست إحسان أبهى الأزياء من المخمل الأخضر الزاهي ، ونامت في حجرة من العاج على فراش من سندس واستبرق . وفي مساء اليوم السابع تحركت بها عربة ملكية تجرها ستة من الجياد البيض تتبعها أخرى محملة بالهدايا النفيسة من ذهب وحلي وجواهر . وسارت حتى وصلت إلى باب القطيع في منزل خالها . وهناك كان أفراد

« البقية في صفحة ١٨ »